في العربيّة التاريخيّة

للدكتور
إبراهيم السامرّائي

لقد عُني الباحثون اللغويون في العصر الحديث بموضوع تاريخ اللغات وفاءً لعلم اللغة التاريخي العام ولعلم اللغة المقارن . ولقد كان من ذلك أن حفل العلم اللغوي بدراسات ذات قيمة في تاريخ اللغات، ولا سيما لغات الشعوب المتقدمة . وبهمّنا أن نعرض لشيء من تاريخ العربية على نحو ما تم انجازه من الدراسات الحديثة في عصرنا الحاضر .

أقول : ربما كانت العربية بِدْعًا بين أخواتها اللغات الساميّة ، وذلك لاننا نعرف من أمر تاريخ اللغات شيئا يفوق ما نعرفه من بدايات العربية ؛ إننا نعرف، مثلا، كثيرا من النصوص البابلية الآشورية والاكدية ، كما نعرف قدرا عظيما من اللغة الآرامية ولهجاتها ؛ وقُلْ مثل ذلك عن نصوص اللغة العبرانية وسائر اللغات الساميّة الاخرى ما خلا العربية . اقول ما خلا العربية، ذلك أنّي اعلم ان بين أيدي الباحثين نصوصا من العربية الجنوبية في نقوش جنوبي الجزيرة العربية وشماليها، كما في النقوش القتبانية واللحيانية والثمودية . وليس في ملوق الباحث أن يتخذ من هذه النصوص البدايات الاولى في تاريخ العربية ؛ فما لا يمكن أن تكون نقوش مَعين وسبأ وحِمْير في الجنوب، ولا النقوش القتبانية واللحيانية والثمودية في شمالي الجزيرة، اصولا تطوّرت الى العربية

النصوص التي مرّ بنا هـا في نصوص الأدب الجاهلي . ان النصوص الأولى التي اشرنا اليها تُعَدُّ بعيدة كلّ البعد، من حيث التطور، من النصوص الجاهلية ؛ ذلك ان الباحث في تلك النصوص يقف ازاء مادة لغوية بعيدة كابرا، من حيث مبناها ومعناها، ممّا تفصح عنه نصوص الأدب الجاهلي مثلا .

لقد ادركت العربيةُ الجاهليةُ، المتمثلةُ بنصوص الشعر الجاهلي، مستوى عاليا من حيث الأسلوب، فقد اشتملت على صِيَغٍ ومَبانٍ هي من الاتقان والإحكام بحيث تَهيّأ منها ان يكون للعرب موازين واقيسة في الشعر هي الغاية في الضبط والتدقيق، من حيث الناحية الموسيقية. وليس ادلّ على ذلك من ان هذه الموازين والاقيسة بقيت المثال الذي يُحتَذَى في موسيقى الشعر طوال عصور عدّة ، ولم يستطع اهل العصور التي تلت ان يضيفوا الى موسيقى الشعر الجاهلية شيئا . اجل، لم يتأتَّ لأولئك الجاهليين ان يحذقوا ذلك الفن الا بعد ان كانت مادّة العربية في صِيَغها وابنيتها قد استوفت غايتها من الضبط والإحكام . ولو وازنّا بين ابنية العربية ونظائرها في اللغة العبرانية او في سائر اللغات الساميّة، لوجدنا ان الابنية في لغتنا القديمة جاءت منسجمة ، مشتبهة في حركاتها وسكناتها، والتئام اصواتها بعضها ببعض، على ما اتاح للجاهلي ان ينظمها في موسيقى شعرية لا نجدها في اية لغة ساميّة اخرى .

ثم اذا جئنا الى ما اشتملت عليه تلك النصوص الجاهلية من معان، وجدنا انها جاءت، الى جانب ما يفصح عن حياة البداوة وعاداتها ورسومها، بمعانٍ تدلّ على ادراك دقيق للحياة في خيرها وشرّها . وليس أدلّ على ذلك من الاشارات الكثيرة التي حفلت بها مطوّلة زهير بن ابي سلمى، مما يدلّ على فهمه الكثير من المعاني الانسانية ؛ ومثل ذلك نجده في سائر النصوص الجاهلية .

اقول، اذا كانت القصيدة الجاهلية قد ادركت في مبانيها ومعانيها هذا القدر السامي من الاجادة في البناء الموسيقي، والتوفر على شيء

كثير من الفكر الانساني ، فلا بدّ ان تكون هذه المواد الادبية الجاهلية قد تطوّرت تطورا عظيما ، ومن ثم فلا بدّ ان تكون قد سبقت هذه المرحلةَ من النضج مراحلُ اخرى لا نعرف عنها شيئا .

ولو اتيح لنا ان نوازن بين ما اثر من الوان العربية القديمة الممثلة في النصوص الجنوبية ، وهي لغات النقوش في معين وسبا وحمير ونظائرها من العربية الجنوبية في شمالي الجزيرة،وهي اللغات القتبانية واللحيانية والثمودية ، وبين نصوص الشعر الجاهلي،لأتّضح لنا بُعْدُ الشقّة بينهما . ومعنى هذا لا يمكننا ان نَعُدَّ تلك اللغات القديمة الممثلة بالنقوش الأصولَ المفقودة التي كانت الأساس الذي تطوّر في نصوص الشعر الجاهلي .

ومعنى هذا ايضا لا بد من القول : إنّ حلقاتٍ عدّةً من النصوص قد ضاعت ففصلت بين الأصول وبين ما نجده من حال العربية في نصوص الشعر الجاهلي .

بعد هذه المقدمة الموجزة لا بد من البحث في المأثور من العربية القديمة،فنعرض لموادّها مستقرين فاحصين،لنرى ما عَرَض لها من التزيّد والانتحال الذي لا بد لنا من كشفه حتى نتبين الصحيح من هذه اللغة العربية .

اقول : لقد قيل الكثير في مسألة الانتحال في الشعر ؛ ذكر ذلك المتقدمون،ويكفي ان نذكر قول المفضل الضبي الذي ذهب فيه الى ان الشعر الجاهلي قد نال من خَلَف الاحمر ما هجّنه وافسده،فلا يصلح ابدا . وقد فصّل القولَ ابنُ سلام الجمحي في هذه المسألة . ثم كان للمحدثين في عصرنا الحاضر مشاركة في هذا الموضوع ؛ واولُ من بحث في ذلك المستشرقون،مثل نولدكة الالماني،وباسيه الفرنسي ، ومرجو ليوث الانكليزي ، كما شارك في ذلك العلماء العرب،ولا ننسى في ذلك مشاركة الدكتور طه حسين .

وقد قيل في وضع الحديث الشريف، وماذا زاد فيه الوضّاعون والكذابون ، وما غيّر فيه المدلّسون والضعفاء، حتى كان من ذلك نشأة ما سُمّي في علوم الحديث بـ « الجرح والتعديل ». ثم كانت طبقات المحدثين صنّفوا حسب توافر الثقة والصدق والأمانة فيهم . وكان من كل هذا ان صُنّفت المصنفات الضخمة في الأحاديث الموضوعة .

ومن غير شك ان الكذب والافتراء والانتحال قد عَرَض لنصوص التاريخ القديم ماسة، فظهرت كتب في التاريخ ابتعدت عن العلم، لزادت في العبث استجابة لهوى، او خدمة لنِحْلة او بِدْعة او ضلالة ، وكلُّ هذا معروف مشهور .

ولكني لم اجد كثيرا ممّن عَرَض للمادة اللغوية، فاستقرى الصحيح، وانصار الى المفعل الموضوع ، الا شذراتٍ من اخبار تشير الى ان شيئا من الوضع قد وقع .

وقد عُنيتُ في هذه المقالة بامر رواية اللغة وما عرض لها من مواد هي من غير شك من صنع الوضّاعين ؛ وما اظن ان جمهرة من هذه المواد قد عرفها العرب ولاكتها السنتهم فجرت في كلامهم. وساعرض لهذه النماذج الكثيرة .

جاء في « المزهر » (١) للسيوطي :

« قال ابن فارس في « فقه اللغة » :

تؤخذ اللغة سَماعا من الرواة الثقات ذوي الصدق والأمانة ، ويُتّقى المظنون :

حدّثنا علي بن ابرهيم عن المعداني عن ابيه ، عن معروف بن حسان، عن الليث، عن الخليل، قال :

« ان النحارير ربما ادخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب، ارادة اللبس والتعنيت » .

قال ابن فارس : "فليتحرّ . آخذ اللغة اهل الامانة والصدق والعدالة،فقد بلغنا من امر بعض مشيخة بغداد ما بلغنا »

ومن هنا نعلم أن الخليل قد عرض لهذا الموضوع ؛ وقوله « ربما ادخلوا » يعني انهم ادخلوا،واستعمال « ربما » في اللغة القديمة يُفيد التكثير كثيرا،كما اشار اهل النحو،كما يُفيد التقليل قليلا .

ولشيوع الكذب في اللغة قالوا : تؤخذ اللغة من ذوي الصدق والامانة،ويُتّقَى المظنون.ثم قالوا:لا تؤخذ من الطفل والمجنون ؛ وذهب قوم فمنع أن تؤخذ من « العبد ».وهم يجرون مجرى اهل الحديث والاثر في تحرّي الصدق والثقة والامانة .

واذا عرفنا ان الوضع قد عَرَض للحديث،وأن الوضّاعين والمدلّسين من اهل الحديث جمهور كبير،فليس غريبا أن نجد شيئا من ذلك يعرض للمادة اللغوية .

ثم اذا عرفنا أن الوضاعين قد عبثوا في الحديث الشريف،والرسول الكريم يقول : « من كذب عليَّ منكم متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » ، وأدركنا سوء صنيعهم،فَهِمْنا أن قضية الوضع في المسالة اللغوية شيء ليس ذا خطر كبير .

ولا نذهب بعيدا في الاستدلال على وجود الانتحال والكذب في المادة اللغوية،وربما يكفي ان نذكر قول رؤبة بن العجاج،الراجز المشهور . لقد ضاق رؤبة ذرعا بيونس بن حبيب،وهو من علماء اللغة المتقدمين ممن أخذ عنهم سيبويه .

لقد كان يونس من علماء اللغة،يجمعها عن رواتها من الاعراب وغيرهم،فكان كثير السؤال لرؤبة هذا لما اشتهر عن رؤبة وابيه العجاج منَ انهما قد اكثرا من الغريب والنوادر في ارجازهما . قال رؤبة ليونس بعد ان اكثر من مساءلته وضاق به ذرعا : « حتى متى تسالني عن هذه الاباطيل وأزوّقها لك ، اما ترى الشيب قد بلغ في راسك ولحيتك؟» (٢).

وحكى ابو عبيدة عن ابن داود بن متمم بن نويرة شيئا يقرب من ذلك، فقال :

« قدم البصرة في بعض ما يَقْدم له البدوي في الجلب والميرة، فنزل الدير، فأتيته انا وابن نوح العطاردي فسألناه عن شعر ابيه، فجعل يزيد في الاشعار ويضعها لنا ، واذا كلام دون كلام متمم ، واذا هو يحتذي على كلامه (٢) فيذكر المواضع التي ذكرها متمم، والوقائع التي شهدها ؛ فلما توالى ذلك علمنا انه يفتعله » .

أقول : ان هذا الخبر الثاني لا يشير الى وضع الكذب في اللغة، ولكنه يشير الى ان الوضع في النص الادبي ؛ ولكني ذكرته لأشير الى أن الاختلاف والوضع والكذب شيء عام، فكما عَرَض للنص الادبي عَرَض لمواد النصوص الادبية، وهي المادة اللغوية. ومن غير شك ان ما جرى بين يونس بن حبيب ورؤبة بن العجاج الراجز مفيد كل الافادة في ان كثيرا من مادة الغريب والنوادر هو مما افتعله اولئك « النحارير » .

ومن المفيد ان اشير الى ان كثيرا مما سأعرض له من المادة اللغوية التي تشير الى انها موضوعة ورد من غير اي شاهد من نَصّ صحيح فصيح ؛ ثم إنْ وُجِد ذلك الشاهد فهو رجز نادر لا يُعرَف قائله، او يكون احد هؤلاء « النحارير » المشاهير، مثل رؤبة وغيره من الرُجّاز، كما سنرى .

ومن المفيد ان اعرض لشيء مما اثر عن كبار اللغويين النحاة، لأشير الى شيء مما ذهبتُ اليه من مسألة الوضع في اللغة .

جاء في اخبار ابي العباس محمد بن يزيد المبرّد صاحب « الكامل » :(٤)
« وقال ابو عبد الله المنجم : كان المبرد اعظم حفظه اللغة واتساعه، يتهم ؛ فتواطأنا على مسألة لا اصل لها نسأله عنها لننظر كيف يجيب ، وكنا قبل ذلك تمارَيْنا في عروض بيت الشاعر :

أبا منذر افنيتَ فاستبقِ بعضنا
حنانيكَ بعضُ الشرّ أهونُ من بعضِ

فقال قـــوم : هو من البحر الفلاني ؛ وقال آخـــر : هو من البحر الفلاني. فقطّعْناه وتردد على افواهنا تقطيعه، ومنـــه « ق بعضنا ». فقلت : ايدك اللـــه تعالى ، ما القبعض ؟ فقـــال : القطن ؛ يُصدِّق ذلك قـــول الشـاعر : « كأن سنامها حشي القبعضا » .

قـــال : فقلت لاصحابه : ترون الجـــواب والشاهد ؛ ان كـــان صحيحا فهـــو عجيب، وان كان اختلق الجـــواب في الحال فهو اعجب .

ومثل هذا مـــا ورد في ابي عمر الزاهد « غلام ثعلب »، فقد اشتهر عنه انـــه لا يُسأل الآ اجاب، فقد كان كثير الاملاء، عالمـــا بالاخبار واللغة والادب، متّهمًا بالكذب والتزيّد .

جـــاء في « انباه الرواة » (٥) للقفطي :

« ويروى ان جماعة من اهـــل بغداد اجتازوا على « قنطرة السراة » وتذاكروا كذبـــه، فقال بعضهم : انا أصحّف لـــه القنطرة واسأله عنها فانه يجيب بشيء آخـــر ؛ فلما صرنا بين يديه قال : ايها الشيخ مـــا الهرطنق عند العرب ؟ فذكر شيئا قد أُنسيته، فتضاحكنا واتممنا المجلس وانصرفنا . فلما كان بعـــد شهر ذكرنا الحديث فوضعنا رجـــلا غير ذلك نسأله، فقال لـــه : ما الهرطنق؟ فقال : الست قـــد سألت عن هذا المسألة منذ كذا وكذا ؟ فقال : هي كذا. فما درينا مـــن اي الامرين نعجب ، من ذكائه ، إن كان علما فهـــو اتساع طريف ، وان كان كذبا في الحال ثم قـــد حفظه ، فلما سئل عنه ذكـــر الوقت والمسألة فاجاب بذلك الجواب فهو اطرف .

ومثل هذه الاخبار كثير في مصادرنا العربيـــة، وهي مفيدة في نظـــر الباحث المدقق . اقول : قد تكون هـــذه الاخبار موضوعة بقصد السمر او النيل من فلان وفلان ممـــن اشتهروا بالعلم ، او قد تكون قـــد حيكت لبيان فضل فلان وفلان وتقدُّمـــه في العلم من الناحية الاخرى . غير انـــي اذهب من كـــل ذلك الى ان شيئا من الوضع في اللغة قـــد حدث، وانه بسبب من ذلك كانت لنا مـــوادّ ضخمة تحجرت في بطـــون المطوّلات .

وانني لاعرض لشيء من ذلك اتخذ منه نماذج ، واود ان اقول بادىء ذي بدء إن هذه المخالفات اللغوية تتناول في الغالب المعاني الخُلُقية المهمة مما يدخل في باب « خلق الانسان والحيوان » . ثم انها تشتمل على أبنية خاصة نافرة . اقول : نافرة، لانها قليلة الورود في لغتنا القديمة العريقة ؛ فهي والحالة هذه قد عفى عليها الزمان في عربيتنا المعاصرة .

ويبدو لي ان اولئك النحارير الكبار قد اهتدوا الى هذا الوضع والافتعال سعيا وراء الغريب والنادر، وولوعا بتلك الاوابد النافرة، وحبًّا باظهار العلم والاجتهاد فيه . ثم انهم اتخذوا من بعض المواد التي تُثبت صحتها واستعمالها اصولا، فزادوا في اصواتها صوتا ظنوا انه يزيد المعنى قوة، فقالوا مثلا : خنبث وخُنابث، والرجل الخنبث والخُنابث هو المذموم الخائن . ومن غير شك ان هذه الكلمة لم ترد في نص قديم منسوب او غير منسوب؛ والذي اراه انها صُنعت من مادة « خبث »، فزادوا في اصواتها النون، والتزموا بناء غريبا من ابنية الرباعي، وذهبوا الى المعنى الذي ارادوه والذي لا يبتعد عن اصل المادة الثلاثية كثيرا . ومن المفيد ان انبّه الدارس الى ان بناء « فُعالِل »، بضم اوله وكسر ما قبل الآخر، من الابنية التي هجرتها العربية الفصيحة منذ قرون طويلة بَلْهَ عربيتنا المعاصرة .

هذا مثل اسوقه لأخلُص الى تحقيقي الوافي الذي اعتمدت فيه على كتاب « الجمهرة » لابن دريد (٦) ، واقتصرت منه على ما جاء في « ابواب الرباعي الصحيح » من المجلد الثالث . ويحسن بي ان اهوّن على القارىء فاتخذ منهجا واضحا ؛ وهانا ابدأ بمعنى « الصلب الشديد » فاعرض لطائفة من الالفاظ التي وقفتُ عليها من هذا المعنى، فاجد : الحنبل ، والذبتل ، والكنبث والكنابث ، والجلدب ، والعكبل ، والجلبز والجلابز ، والبعثج ، والعضبل ، والشنزب ، والكمتر والكماتر ، والكمتل والكماتل ، والجلعد والجلاعد ، والجلفز والجلافز ، والعردل والعصلد ، والعكلد والعندل ، والصمصلّ ، والعكلد والعلكد ، وسيطر ، وضبطر ،

وكندث وكنادث وشعثم ، وعردل . ومثل هـذا كثير .

تعليـــق :

أقـول : ان هذه الطائفة من الالفاظ هي قليـل من كثير في معنى « الصلب الشديد » أو « الشديد الصلب » . وقـد وردت على هذا اللون النادر في ابنيتها وفي مكانهـا من اللغة،فلم ترد في اي نصّ كـان،موضوعا أو غير موضوع . ثم إنها لـم تلصق بموصوف معروف،فلم اتبين انهـا من صفات ولوازم العاقلين،كما لم اتبين انهـا من لوازم غير العاقل من الحيـوان والجمـاد.

غـير أن العارف بالمعجم القديم واصوات العربيـة يدرك انصراف الاصوات لمـا يمكن ان يكون شيئا من معنى حـسّ او نازّ لذلك المعنى . اريـد ان اقول مثلا إن سلحب وسلهب تشـيران الى « الطول »،فقد نحس هـذا من معرفتنا ان في « سحب » و « سهب » شيئا مما يُشعر بهذا المعنى ؛ وهكذا زاد الوضع وزاد الاستعمال،وكثرت المتحجرات،وسَمَّها ما شئت مـن نوادر وغريب واوابد .

وقـد ترد طائفة من هـذه الالفاظ مشيرة الـى « الصلب » او « الشديد » او « كليهما » او ما في معناهما،الى جانب « رجل » او « اسد » او « حمار » فتكون كالصفات.ومن هـذا :

الكندر والكنادر = الحمـار الصلب الشديد .

واسـد عشرّب وعشرّب وعشرّم = غليظ شديد .

وجمل غبنّك = شديـد صلب .

ورجل قنبل وقنابل = غليظ شديـد .

ورجل كنبـل وكنابل = صلب شديد .

تعليـــق :

لا ارى ان كـــان صوت القاف في « قنبل » هـــو الذي غيَّر المعنى من « الصلب » الـــى « الغليظ » ! ذلك انهـــم قالوا : كنبل،صلب شديد .

وقـــد وجدت من ذلك انهـــم قالوا :

عنتـــل = صلب شديد ، امـــا غنتل (بالغين المعجمة) فهي الخامل ! بل صحيح ان العرب نطقوا بالكلمـــة مبدوءة بالعين المهملة لتعني الصلب الشديد،وبالغين وهـــي نظيرتها وتعني الخامل . انهم لـــم يذكروا اي شاهد على ذلـــك .

ومن المفيـــد ان اشير الى ان « عنتل » ربما يكون قريبـــا من « عتل » التي وردت في قولـــه تعالى،« عتل بعد ذلك زنيـــم » .

ولا بـــد ان اعرض لبقية من هـــذه المعاني الحسية التي تدخل في خلـــق الانسان والحيوان وصفاتهما،ممّـــا ورد يتيما في مطولات اللغة،لم نظفر بـــه في نص ثبتت نسبته،ولـــم يرد في اضعف الاحوال في رجز من الارجاز . وسأعرض لطائفة مـــن الالفاظ التي لم تُعرَف الا عند الرجازين ممـــن يتساهلون في صنع هـــذا اللون من الكلام .

قالـــوا : الجنبخ والجنابخ = العظيم مـــن كل شيء .

الجنبز = القصير ؛ الجعشب = الطويـــل الغليظ .

ومـــن الطريف ان يكون مقلوب « الجعشب » شيئا آخـــر، فقالوا : العشجب = الرجـــل المسترخي . كل هذا من غـــير ان يُشفَع بشاهد يعطي شيئا من الثقـــة .

ومثل هـــذا : الدَنْبَخ = السيء الخلق،في حين الدنحبة = الخيانة . ورجل شرحب = طويل ؛ والجركي = القصـــير المتداخل .

وسحتب = اسم،وهـــو الجريء المتقدّم ؛ والكلتب والكلتبة = شبيه بالداهيـــة .

والبهكنة = السرعة فيما أُخِـذ فيه من سمل .

والسلحب والسحبل = الطويـل .

تعليـــق :

لـم يغيِّر القلبُ شيئا من المعنى،وسبحل وسبحلة = طويـل ضخم ، وطويلـة ضخمـة .

وقـد ذكروا في هـذا رجزا مشهورا هـو :

سبحلـــة ربحلـــه تنمي نمـاء النخله

وسكتوا عـن « ربحلة » ولم يقولوا فيها شيئا،ولعلها شيء من « الاتّباع » مثل : شذر مذر ونحوها .

والكنتب والكناتب = القصـير المتداخل ؛ ورجل خنبث وخنابث = الخائن ؛ وشنبث وشنابث وهـو الغليظ من الناس ؛ ورجـل كلبث وكلابث = منقبض بخيل؛ورجـل حبجر وحباجر = عظيم البطـن ؛ وربما سمي الغليظ حباجر ؛ ورجـل جحرب وجحارب = العظيم الخلق ؛ ورجل طرعب = طويـل قبيح في الطول .

وحبجر وحباجر = ذكـر الحبارى؛وكذلك حبرج وحبـارج ؛ والبحرج = ولـد البقرة الوحشية؛وخبجر وخباجر = المسترخي البطن .

تعليـــق :

وقد مَـرَّ بنا أن حبجر وحباجر (بالحاء المهملة) يفيـد عظيم البطن ، ولا أدري كيـف تطلق الدلالة .

ورجل جلحب وجلحاب وجلاحب = الشيخ العظيم الجسم وفيـه بقيـة ؛ ورجل جحنب وجحانب = القصير الغليظ ؛ والحنجب = اليابس من كل شـيء ؛ وخلبج وخلابج = المضطرب الخلـق الطويل . وحنبخ وجنابخ = الطويل الخلق ، والجسرب = العظيم الطويل ؛ والشرجب = الطويل مـن الناس والخيل .

ورجل جعبر = القصير المتداخل ؛ والجعبر ايضا = القصب الغليظ الذي لم يُحْكَم نحتـــه .

والجرعب = الجافي ؛ والجنبـز = القصير ؛ والكهدب = الثقيل الوخـــم .

تعليـــق :

مـرَّ بنا ان الجلبز = الصلـب الشديد !

الجعشب = الطويـل الغليظ .

ولا بـد ان نعرف ان مقلوبها مـع تغيير الضمتين الى فتحتين، وهو العشجب، يفيـد الرجل المسترخي، ثم زادوا فقالوا : المخبول مـن جنون ونحسوه وليس بثبت .

ومما عرض لطائفة مـن الالفاظ ذكروا انهـا « ليست بثبت ! »

والهلباج اصل بناء قولهم : رجل هلباج وهلباجة وهلابج = الثقيل الوخم.

والحريق = القصير المجتمع ؛ الدنـس = السيء الخلق ؛ ورجـل شرحبيب = طويل ؛ وحضرب مـن الحضربة = الضيق البخيل ؛ ورجـل دخرش ودخارش = العظيم البطـن .

والخضربة = اضطراب المـاء ؛ ومـاء خضارب ، وشخارب = الغليظ الشديد ؛ ورجـل سلخب = لئـيم ؛ وشنخب = طويل ؛ وناقة خلابة = مسنّـة مسترخية .

والخلابة = مشية فيهـا ضعف ؛ والخترية منهـا اشتقاق الخنزوب والخنزاب = الجريء على الفجور ؛ ورجـل كنابذ (بالدال المهملة) = صلب شديد ؛ ورجـل كنابذ (بالذال المعجمة) = غليظ الوجه جهـم ؛ وعرزب = غليظ شديد ؛ وعرزب = صلب شديد . وناقة بلعس وبلعس وبلعك وبلعطاي المسترخية المتبخبخة اللحـم .

تعليـــق :

ولا ادري ان كـــان تغيير الضبط بالحركات قد ادى الى هـــذا التغيير الطفيف فـــي المعنى .

ورجـــل برشع وبرشـاع = سيء الخلق ؛ القهزب = القصـــير ؛ العصلب = الطويـــل المضطرب علبط وعلابط الرجل الثقيل ؛ ولبـــن علبط وعلابط اذا خثر ؛ ورجـــل هبتع وهباتع = قصـــير ملزز الخلـــق ؛ وجمل غبنّك = شديد صلب ؛ والدهكث = القصير ؛ والدلامث والدلامث = السريع ؛ وبعير دلهث ودلاهث = الجريء في سيره ؛ وكثر وكثار = المجتمع الخلق ؛ والحرجل = الرجـــل الطويل ،

وامـــراة حفضج وحفاضج = عظيمة البطـــن ، وكذلك سفنج ؛ واتان سمحج = طويلـــة .

والشرجع = الطويل ؛ ورجـــل بلعث وامراة بلعثة = هـــو الاحمق وهي الرخواء في غلـــظ؛ورجل جنعط وجنعاط = هـــو الجافي الغليظ الاحمق ؛ وقالوا : هـــو القصير المجتمع الخلق .

تعليـــق :

لقـــد لاحظت على طائفة من هـــذه الغرائب ابتعادا في الدلالة،وهذا قـــد يعني ان الكلمة قد توحي لاحدهم شيئا في حين انها توحي لآخر شيئا آخر ، وكل ذلك جائز مـــع غياب الشاهد والاستعمـــال .

وعجوز هرشفّة = مسنّة ؛ ويقال : بـــل الهرشفّة خرقة يُنشّف بها المـــاء من الارض او من الحصى .

تعليـــق :

وهـــذه الهرشفة نظير سابقتها وهـــي الجنعط والجنعاط ، ولا يمكن للدارس ان يطمئن الى هذا الذي ذكر في مطولات اللغـــة من كلام الغريـــب المهجـــور .

ورجل حلبة وحلب ـ الغليظ .

وقالوا : هجف ـ جاف وغليظ ؛ والهزف ـ السريع ؛ والخدع ـ مظلم الخلق (للبعير) .

ويقال : هبيد وعنلط وعجلط وعكلط،وهو اللبن الخاثر .

تعليق :

وهذا من اعجب العجب؛فكيف تكون جملة هذه الالفاظ التي جاءت على بناء واحد،وكلها بدأت بصوت العين، تؤدي معنى واحدا هو اللبن الخاثر !

والهبيد ايضا داء يصيب الانسان في عينه كالعشا فلا يبصر بالليل .

الفاظ مع شواهدها

وهذه الطائفة من الالفاظ ذات شواهد،والشاهد إمّا ان يكون بيتا او رجزا غير معروف ولا منسوب ، وإمّا ان يكون مثالا مصنوعا على طريقة النحاة في قولهم : قام زيد وجلس عمرو .

الجردبة : يقال : رجل مجردب الذي يستر يمينه بشماله ويأكل ، قال الشاعر :

اذا ما كنت في قوم شهادى

فلا تجعل شمالك جردبانا

واجلعبّ الرجل اذا سقط على وجهه

واجلعبّ الفرس اذا مرّ سريعا

تعليق :

وهنا ارى كيف التق بهذين الاستعمالين على البعد وما بينهما والتقارهما الى الكلام الاصيل .

ومثل ذلك : ابلندح المكان اذا اتّسع ؛ وابلندح الحوض انهدم . قال الراجز :

قـــد داست المركَّ حتى ابلندحا

البغثر وهـــو الاحمق الضعيف ؛ قـــال الراجز :

ليعلمنَّ البغثر ابـــن البغثر

ومـــن ذلك : زلحب،من قولهم : تزلحب عـــن الشيء اذا زلَّ عنه .

ويقـــال : عثلبت الحوض اذا هدمته،عثلبة وعثلابا ؛ قـــال الراجز :

« والنؤى بعـــد عهده المعثلب »

وقـــال الآخر : « والنؤى امسى جدره معثلبا » .

ومـــن الطريف ان يكون « غثلب »،بالغين المعجمة،شيئا آخر ، يقال : غثلب المـــاء يغثلبه اذا جرعـــه جرعا شديدا .

خدرب : اسم،ودربخ احسبها سريانية،وهـــو التذلل والاصغاء الى الامر ؛ قـــال العجاج :

ولـــو نقول دربخـــوا لدربخوا لِفُحْلِنـــا ان ســـرَّه التنـــوّخُ

تعليـــق :

سآتي على طائفة مـــن الالفاظ التي ظنوا تَوَهُّمًا وتصوُّرًا انهـــا دخيلة،وربما عرّبت،وليس شيء مـــن ذلك قائما على ثقـــة ومعرفة وانما هو ظن ورجم بالغيب ؛ ثـــم ان المعنى في هذه الكلمة استوعبناه اللغوي القديم من قـــول الراجز الذي لا يتوقف امـــام القافية،فهو يصنع اللفظة وهي توحي مـــا توحيه ؛ ومثل هذا ما نستشعره كثيرا في الاراجيز ، وقد لمحـــوا الى شيء من ذلك .

بخذع وخذعب : يقال ضربـــة بالسيف حتى بخذعه وخذعبه .

سربخ : هـــو الفضاء القفر ؛ قال عبيـــد :

فابصرت ثعلبا بعيـــدا ودونـــه سربخ جديـــب

وخطرب وخطارب وهـــو التقول بما لم يكن ؛ جـــاء فلان يخطربه .

تعليق :

ولا ادري ما العلاقة بين هذا وبين قولهم :

الخطربة والحطربة والحظربة تعني الضيق في المعاش ! ومن قال هذا،وأين،ومتى ؟

خرباش : وقع القوم في خرباش،اي في اختلاط وصخب ، لغة يمانية .

تعليق :

لعل الباحث يستطيع ان يجمع طائفة ضخمة من الالفاظ التي « زعم » ابن دريد في « الجمهرة » انها يمانية،وليس من دليل يثبت هذه الاصالة في الموطن القديم .

وخزبرت الثوب اي شققته . ومثله الخزلبة ؛ يقال : خزلبت اللحم او الحبل اي القطع السريع .

تعليق :

لعل هذا المعنى من لمح الثلاثي وهو « خرق » و « خزل »،وقد زيد الباء في الفعلين ارادة التكثير او التخصيص ؛ ومثل هذا حاصل . ولكني اتساءل هل وُجد الفعلان في كلامهم الفصيح المعروف ؟

ومثل هذا « بزمخ » اي تكبَّر.ومن غير شك ان الثلاثي « زمخ » يفيد هذا،فزيد الباء .

زغدب . قالوا : فلان يزغدب على الناس اذا كان يلحف في المسالة ؛ هذا من مكوزة الاعرابي .

تعليق :

كان صاحب الجمهرة « اراد ان يبعد التبعة فذكر هذا الاعرابي « مكوزة ؟ » الا يرى الباحث ان هؤلاء الاعراب قد اريد لهم ان يضعوا ويفتعلوا ويأتوا بالكلام البارد ؟ ومثل هذا ما ذكروا في مادة « بخدق » (٧) :

اخبرنا ابـو حاتم ، قال : سألت ام الهيثم (الأعرابية) عـن الحَب الذي يقال بـه بالفارسية اسفيوش مـا اسمه بالعربية ؟ فقالت : أرني منه حبّات، فاريتهـا وافكرت ساعة ثم قالت : هـذا البخدق، ولم اسمعه مـن غيرهـا .

ولمـا كان الكلام على الاقتعال فلا بـد ان اورد قصة ام الهيثم هذه :

قال عمر بـن خالد العثماني : قدمت علينـا عجوز من بني منقر تسمى ام الهيثم، فغابت علينـا ، فسأل عنها ابـو عبيدة فقالوا : انها عليلة ، فقال : هـل لكم ان نعودها؟ فجئنا فاستأذنّا، فقالت : لِيلوا . فسلمنا عليها، فـاذا هي عليها اهدام وبجـد ، وقد طرحتها عليهـا ؛ فقلنا : يـا ام الهيثم كيف تجدينك ؟ قالت : كنـت وحمى بالدكة (الودك) ، فشهدت مادبة فاكلت جبجبة مـن ضعيف هلمة فاعترتني زلخة . فقلنـا يـا ام الهيثم : اي شيء تقولين ؟ فقالـت او للناس كلامان ؟ والله ما كلمتكم الا بالعربي الفصيـح .

وهـذا الذي زعموا ان ام الهيثم ذكرته لم يقل بـه غيرها ، وهو ان كان صحيحا والخبر ثابتا فـان من غير شك ان الأعراب شاركـوا في هذا العمل المفتعل المختلق . وفي مطوّلات العربية مـادة كثيرة لم تُسمع الا من واحـد من اللغويين، فقد أُثر عن اللحياني، من علماء اللغة، مسائل كثيرة تَفرّد بهـا فجاءت غريبة عـن المتوارد المسموع .

ويبـدو انهم كانوا لا يشكّون كثيرا فيما يقال إنّـه مسموع من الاعراب. ذكـر يونس فيما زعموا انـه سمع بعض العرب يقولون : ما هذه الكنخبة ؟ يريـد الكلام المختلط من الخطـا (٩) .

ومن هذا الباب الذي استشهدوا عليـه بالرجز اليتيم قولهم : رجـل قرشب، اي طويل ، ويقـال للشيخ اذا عسا وغلظ: « قرشبّ » ، وقـال ابـو محمد الفقعسي :

كيف قريت شيخـك القرشبّا لمـا اتاك سائلا منبّـا

وقالوا : رجـل شهبر وامراة شهبرة اي مسنّة لـم تصلبها السن ؛ قـال الراجـز :

رُبَّ عجوز من اناس شهبره علمها الانقاض بعد القرقره

ويبدو ان الراجز ينصرف في الكلمة حسب الحاجة،فقد قلبت « شهبرة » الى « شهربة » فقال الراجز :

ام الحابس العجوز شهربه ترضى من اللحم بعظم الرقبه

فصارت من شواهد النحو في مجيء خبر المبتدا محلى بلام الابتداء للتوكيد،خلافا للمشهور من مجيء اللام داخلة على خبر « ان » .

وقالوا : تبعرص الشيء اذا قُطِع فوقع يضطرب . ذكر ابن الكلبي أن الشنفرى لما خرج من البئر قُطِعت يده بعد أن ضربه رجل فتبعرصت يده وكانت بها شامة فقال :

لا تبعدنْ لا تبعدنْ يا شامه ...

وقالوا : زعبل وهو اسم،واشتقاقه من قولهم : « صبي زعبلٌ اذا كان سيئ الغذاء كادى الشباب . ومن امثالهم،(لا يكلم زعبل) .

وقالوا : الضبغطي والضبغطي وهي كلمة يفزع بها الصبيان ، قال الراجز :

وزوجها زونزك زونزي يجزع ان فُزّع بالضبغطي

وقالوا : الطالخشة التلطّخ بالشيء ؛ ذكر ابو مالك وابو الخطاب الاخفش : طالخَهُ طالخَهُ اذا لطّخه بامر يكرهه .

وقالوا : حضجم وحضاجم اي الجافي الغليظ اللحم ؛ قال الراجز :

« ليس بمبطان ولا حضاجم »

وقالوا : الدمجلة اي الاخذ الكثير ؛ قال الاسعر الجعفي :

باتت كلاب الحيّ تسفح بيننا ياكلن دمجلة ويشبع من عفا

ثم قالوا : الدمجلة اختلاط الالوان في ثوب او غيره . اين هذا من ذاك ؟ وقالوا : شرج الرجل اذا عمل عملا غير محكم .

وقالوا : فمجر المـــاء اذا جرعه جرعـــا شديدا .

وقالوا : افرنجم اللحـــم اذا تشيَّط من اعلا ولـــم يُنْتَوِ .

وقالوا : علهضت القارورة اذا صممت راسهـــا،هكذا يقول الخليل ؛ قال ابو حاتم،هذا بنـــاء مستنكر ويقال : عضـلت . ويقال : دعقبـــه اذا دفعه من ورائـــه .

الفـــاظ اخـــرى

وهذه طائفة من الالفاظ منها مصادر تدل علـــى كثرة الكلام واختلاطه، واخرى تدخل على المشي وما يتصل بـــه ، ومنها الفاظ قالوا انها موضوعة وليست بثبت او انهـــم ،

قالوا : جعتب اسم ماخوذ من فعل مُمات ؛ والجعتبة الحرس والشره .

وقالوا : الصعتب،واصـــل الصعتبة مقاربة الخطـــو والنفّة .

وقالوا : عنبث والجمع عنابث،وهـــي شجيرة زعموا وليس بثبـــت .

وقال ابن دريد : السبرجة احسبهـــا دخيلة في العربية من قولهـــم : سبرج على هـــذا الامر اذا عمّـــاه .

وقالوا العشجب اي الرجـــل المسترخي،وقالوا المخبول مـــن جنون ونحـــوه،وليس بثبت .

وقالوا : الشهجبة اي اختلاط الامـــر .

وقالوا : خرزب ماخوذ من الخرزبة،وهـــو اختلاط الكلام وخطلـــه .

ومثله : هذربة وهذرمـــة،وتعني كثرة الكلام ، امـــا الهزربة فهي الخفّـــة والسرعـــة .

ومثل هـــذا : الهرثمة والحذرمة،وكلّهـــا كثرة الكلام .

وقالوا : الخنبصة (١٠) اي اختلاط الامـــر .

وقالوا : الخطلبة وهي كثرة الكـــلام واختلاطه،ومثلهـــا الهزمجة اي اختـــلاط الصـــوت .

وقالوا : الدربلة وهي ضرب من مشي الانسان فيه ثقل، كقولهم : جاء يدربل .

وقالوا : ذدلبت اللقمة اذا ابتلعها وليس بثبت .

وقالوا : البركلة والكربلة، وهي مشي في الطين او خوض في الماء ؛ وكربلت الشيء خلطته بعضه ببعض .

وقال ابن دريد : الرهبلة احسبها ضربا من المشي، وليس بثبت ؛ قالوا : جاء يترهبل اي يمشي مشيا ثقيلا .

وقالوا : نخلط في كلامه اذا خلط .

وقالوا : الحضرمة اي اللحن في الكلام . والهتمرة اي كثرة الكلام .

وقالوا : الهبرمة، زعموا كثرة الكلام ولا احققه . وقالوا : العذرمة والغذرمة والغذمرة اختلاط الكلام .

وقالوا : زلهب، زعموا انه خفيف اللحية ؛ قال ابن دريد ولا احققه .

وقالوا : الدرقعة العَدْو الشديد مع فزع، ومثله، القعسبة والكسعبة .

وقالوا : القنطاة وهي العدو بفزع. قال ابن دريد وليس بثبت .

وقالوا : الاخرط والشخروط نبت زعموا وليس بثبت .

وقالوا : تخطع اسم ؛ قال ابن دريد : واحسبه مصنوعا .

وقالوا : عفشج اي ثقيل وخم زعموا ؛ ذكر الخليل انه مصنوع .

وقالوا : عجوز جلقق اي كثيرة اللحم مسترخية ؛ قال ابن دريد : واحسب ان هذا الحرف مصنوع لان الجيم والقاف لم تجتمع الا في احرف معروفة .

وقالوا : الحوكلة ان يمشي ويضع يديه في خصره ويعتمد عليها .

وقالوا : الحرقلة والحرقلة ضرب من المشي ؛ والخذعلة والخزعلة والخزرفة وهي ان يمرّ الرجل يخطر .

هـــذا تحقيق في طائفة من الالفاظ الرباعية البنـــاء ، وهي من غير شك من مـــادة الغريب المهجور ؛ وقد كنت اشرت الـــى ان شيئا كثيرا من هذا لا يوحي انـــه ورد في كلام العرب او ان الالسن قـــد لاكته . ومن اجـــل ذلك فهي مخلّفات لغوية لـــم تكتسب الحياة منذ ان وضعت . وقد لمحنا ان اهـــل اللغة قد وقفوا منها موقفـــا خاصا،وإن كانوا قـــد سعوا الى جمعها وضبطها رغم انهم لم يتحققوا الكثير من اصالتها وصوابها.

ان معجمنا القديم لهـــو وعـــاء واسع اشتمل على فوائد جمّـــة ، نستخلصها فتتبين لنـــا عبقرية العربية،وكيف انها ظلت لغـــة الحضارة في العالم المعمور طوال عصور عـــدّة،وما زالت قادرة علـــى مسايرة عصرنا الحاضر بحضارته المعقّـــدة الضخمة . غير ان هـــذا المعجم قد ضَمَّ الى جانب تلـــك الاعلاق النفسية مـــوادّ اخرى صُنعت صناعة وأُخترِعت اختراعا،فلم يكن لها مـــا حفظ الحياة .. ومن اجـــل ذلك كان على اللغوي في عصرنـــا ان يؤرخ هذه اللغة فيقف علـــى مراحلهـــا ، وكيف استجابت لتلك المراحل الزمنية ازاء الحضارات المتعاقبة ، ثم يعرض لمـــا لفظته القرون ، فانقطعت اخباره وعفت آثـــاره . ومن العجيب ان مؤسساتنا العلميـــة ومجامعنا اللغوية لـــم تحقّق كثيرا من علـــم اللغة التاريخي، فتقيـــم للعربية تاريخا اســـوة بغيرها من اللغات الحية في عصرنـــا هـــذا .

---

(١) السيوطي ، المزهر ١٣٧/١ — ١٣٨ .

(٢) ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء (ط دار المعارف) ص ٥٨١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٠ .

(٤) الانباري ، نزهة الالبّاء (ط مكتبة الاندلس ببغداد) ص ٢٢٠ .

(٥) القفطي ، انباه الرواة ١٧٢/٣ .

(٦) ابن دريد ، الجمهرة ٢٩٥/٣ — ٣٧٠ .

(٧) اللسان ٣٩/١٢ (ط. دار صادر) مادة بخق ، بخدق . وكذا في الجمهرة (مادة بخدق) .

(٨) القالي ، الامالي ٦٩/٣ ، والمزهر للسيوطي ٥٤٠/٢ . والدكة = الوداك ، والجبجبة = الكروش يحفظ فيها اللحم المجفف ، والصفيف = ما صف من اللحم . علمة = الهلع الجدي .

(٩) الجمهرة ، المجلد الثالث مادة (كلخب) .

(١٠) لعل كلمة « خبصة » في العامية الدارجة العراقية شيء من هذا .